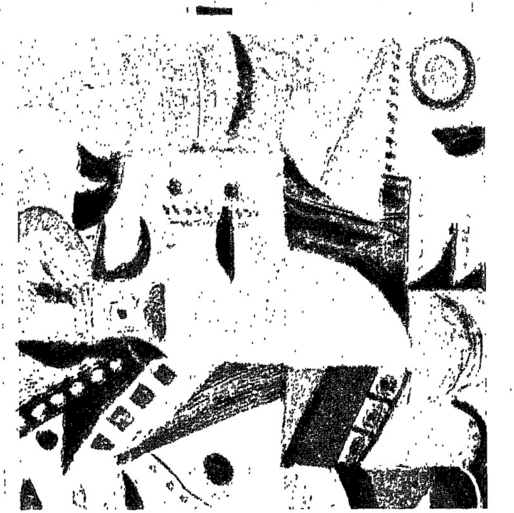
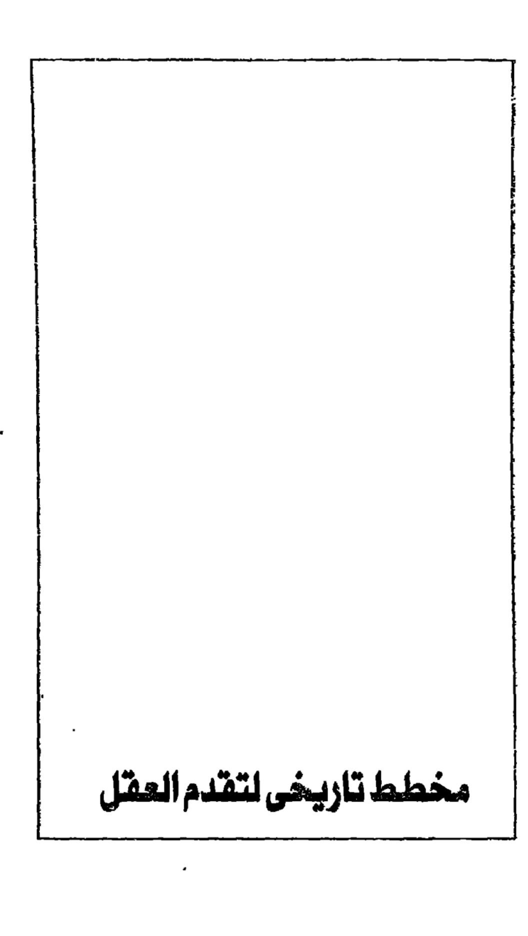
مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري

د. السيد محمد بدوي





مخطط تاريخي لتقدم العقل

مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري لكواندرسيه

د . السيد محمد بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

مخطط تاريخي لتقدم العقل البشرى لكواندرسيه

د . السيد محمد بدوى

تقول مدام دى لسبيناس فى تصويرها لصفات كوندورسيه انه « واضح ودقيق ، عادل ومتسامح ، يجمع بين سهولة التعبير ورشاقة الأسلوب عند « فولتير » ، وبين لذاعة « فوتنتيل » ، وعمق « نيوتن » • ويضيف الى معارفه الواسعة الاستنارة والذوق الجميل ، واذا تحدثت اليه ، أو قرأت ما يكتبه ، أو ناقشته فى الفلسفة ، أو الأدب أو العلوم ، أو الفنون ، أو نظم الحكم ، أو التشريع ، لقلت لنفسك مائة مرة انك أمام عبقرية قل أن يجود الزمان بمثلها • فهو لا يجهل شيئا حتى التفاصيل التى قد لا تتفق مع ذوقه أو مع شواغله • وتساعده على ذلك ذاكرة عجيبة تعى كل شىء ولا تنسى شيئا قط » •

يتضح لنا صدق هذا الوصف ، وعدم غلوه ، حين نتصفح المجلدات التى تحتوى على المؤلفات الكاملة لكوندورسيه • ونجد أن « دالمبير » كان على حق حين عهد ،

•

فى وصـــيته ، بتكملة مشروع « الأنسكلوبيديا » الى هذا العقل « الانسكلوبيدى » اذ تشهد سلسلة مؤلفاته الطويلة أنه ما من مسألة من المسائل التى شغلت عصره الا وكان له فيها رأى ٠

حيـــاته :

ولد جان أنطوان نيكولا (ماركى دى كوندورسيه) فى ١٧ سبتمبر عام ١٧٤٣ م ، وفقد والده وهو فى سن الرابعة ، فتقاسمت أمه عبء تربيتــه مع خاله ، ونشـأه تنشئة دينية خالصة ، وعند بلوغه الحادية عشرة عهدا به الى أحد الآباء اليسوعيين ٠ وفى عام ١٧٥٨ التحق بكلية « نافـار Navarre حيث تفوق فى حـل المعـادلات الصعبة ، مما جعله يكرس جهوده لدراسة العلوم ، وبخاصة العلوم الرياضية ٠

ولم يكن عمره قد تجـاوز الثانية والعشرين حين تقدم الى أكاديمية العلوم بأول دراســة له فى الرياضيات عن « حساب التكامل » ٠ وفتح بهذه الدراســـة مجالات جديدة ساعدت هذا الفرع من العلوم الرياضـية على بلوغ الكمال ٠ وهيأته دراسته وأبحاثه لأن يصبح عضوا فى أكاديمية العلوم فى عام ١٧٦٨ ٠ ولكن أسرته طلبت اليه ألا يتقدم لهذا المنصب العلمى لأنها كانت تعد الانشغال بالعلوم مما لا يليق بأسرة نبيلة ٠ وكانت تفضل له أن

يصبح قائدا فى سلاح الفرسان · ولكنه لم يرضخ لرغبة أسرته الا عاما واحدا ، وفى العام التالى تقدم لهذا المنصب ، وانتخب بالاجماع ·

ويتميز عام ١٧٧٠ بلقائه مع فولتير حيث ذهب اليه فى صحبة « دالمبير » وقد أثرت هذه الزيارة فى نشاطه العلمى الذى أصبح بعدها لا يقتصر على مجال الرياضيات، بل تعداه الى مجالات السياسة والاجتماع والفلسفة كما أثرت صداقته « لتورجو » Turgot فى توجيه بعض اهتماماته الى مسائل الاقتصاد الاجتماعى · وعندما أصبح تورجو وزيرا للمالية عهد الى صديقه « بمراقبة النقد » · وهاجم كدندورسيه سياسة نيكر Necker الاقتصادية الى حد أنه ترك وظيفته عندما أصبح « نيكر » وزيرا ·

ولم يكن اهتمامه بالمسائل الاقتصادية والمالية يشغله عن متابعة البحث والكتابة فى الفلسفة ، فأعد بحثا عن « تمجيد بسكال » ، واهتم باعداد طبعة جديدة لمؤلفه الخالد « الأفكار » Les pensées » وفى هذا البحث لم يخش كوندورسيه من أن ينقد بسكال لعدم اهتمامه بعلوم التاريخ الطبيعى ، وأثار هذا النقد بعض السخط عليه فى الأوساط العلمية ، بل انه كان من أسباب تعطيل انتخابه عضوا فى الأكاديمية الفرنسية · ولم يكن فولتير من أنصار هذا التعطيل بل ثار عليه وكتب الى كوندورسيه فى عام١٧٧٦ يقول : « أكرر لك أنك اذا لم تشرفنا بأن

نصبح عضوا معنا هذا العام فانى سأخـــرج لاقضى بقية حياتى عضوا فى أكاديمية برلين أو بطرسبرج ، ومع ذلك فان كوندورسيه لم يتقدم لعضوية الأكاديميـــة الا فى عام ١٧٨٢ ، ولم يفز على منافسه « بايى Bailly » الا بصوت واحد • وكان البحث الذى ألقاه عند استقباله بالأكاديمية عن « المزايا التى يجنيها المجتمع من اتحـــاد العلوم الطبيعية مع العلوم الأخلاقية » (١) •

وفى عام ١٧٨٦ تزوج كوندورسيه ، وكانت سنه حينذاك ثلاثا وأربعين سنة ، وفى خلال السنة نفسها نشر مؤلفه عن « حياة تورجو » الذى عبر فيه عن آرائه الأساسية فى السياسة ، وهاجم فيه بلا هوادة امتيـــازات النبلاء (بالرغم من أنه كان بحسب مولده واحد منهم) • واتضح منذ ذلك الحين أنه أخذ يعد نفسه للحياة العامة • وكانت أول الوظائف الســـــياسية التى تقلدها عضوية بلدية باريس • ومن هذا المنصب تولى كتابة احتجاج أهل باريس ضد القانون الذى أصـدرته الهيئة التأسيسية للدستور الذى كان يرتب حقوق المواطن السياســية على أساس ما يدفعه من الضرائب •

وفى عام ١٧٩١ رشـــح نفســه لعضوية الجمعية التشريعية وفاز بهـا ، وانتخب أولا ســـكرتير الجمعيـة

---

(١) Des Avantages que la Société peut retirer de la réunion des sciences physiques aux sciences morales.

ثم رئيسا لها ، وكان من أول المهام التي قام بهـــا الغاء قانون امتيـــازات النبلاء ، ثم كرس جزءا كبيرا من وقته لتنظيم التعليم العام •

وأصبح عضـــوا فى لجنة دستور الثورة الفرنسية فى ١١ أكتوبر ١٧٩٢ • وعهد اليه ، مع بعض زملائه ، ببحث قضية لويس السادس عشر ، فوقف منها موقفا فى غاية الاعتدال وتوخى العدالة القانونيـــة ، ورأى أن الحكمة تقتضى عدم السير فى اجراءات اعدام الملك • بل انه صرح دون مواربة أنه ضد عقوبة الاعدام عموما ، وقال « ان الغاء عقوبة الاعدام من أنجع الوسائل لرقى الجنس البشرى لأن هذا الالغاء يقضى على الميول الوحشـية التى انتقصت من قيمة الانسان خلال أجيال عديدة » • ولكن مجلس الثـــورة لم يأخذ برأيه ، وأعـــدم الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت بالمقصلة • كما أن الدستور الذى اشترك فى وضع قواعده الأساسية أدخلت عليه تعديلات كثيرة غيرت معالمه ، فهاجمه كوندورسـيه بعد أن تمت الموافقـــة عليه ، وصرح بأن « ارادة الشعب الحقيقية يجب أن تحترم ، وأن من الخيـــانة للشعب أن نعتقد أنه غير قادر على اجراء انتخابات مباشرة حرة • كما أن الدســتور الذى لا يعطى ضـمانات للحريات المدنيـــة يعتبر بلا شك دستورا معيبا •

وكانت هذه الملاحظات التى أبداها كوندورسيه على

الدستور والتى تعبر عن ضمير الشعب وتنبعث عن فهم واع للديموقراطية الأصيلة ـ كانت هذه الملاحظات سببا فى اصدار الأمر بالقبض عليه • ولكنه كان قد احتاط للأمر واختبأ فى منزل مدام فرنيه Mme Vernet وهى من أصدقاء أسرته •

وفى سجنه الاختيارى هذا شغل كوندورسيه نفسه بعمل كبير طالما طلب اليه أصدقاؤه أن يقوم به ، وهو كتابة تاريخ تطور البشرية • فانصرف الى هذا العمل الضخم فى ديسمبر ١٧٩٣ ، وانتهى منه فى مارس ١٧٩٤ وجعل عنوانه « مخطط للوحة تاريخية عن ضروب التقدم التى أحرزها العقل البشرى » (٢) •

وهو المؤلف الذى نقوم بعرضه وتحليله فى هذا البحث •

ويعبر هذا المؤلف عن ثقة لا حد لها فى مستقبل البشرية ، وهو أمر يثير الدهشة اذا تذكرنا أن كوندورسيه قد كتبه وهو تحت وطأة الحكم بالاعدام الذى صدر ضده • فقو استعرض فيه بعين فاحصة الحالات الماضية والحالة المستقبلة التى بدا له أن المجتمعات الانسانية تسير اليها ، ونجح فى أن يبعد عن ذهنه شبح الأفكار التشاؤمية التى

Esquise d'une tableau historique des progrès de l'Esprit human.

بعثتها فى نفسه أحداث فرنسا فى ذلك الوقت ولم يظهر فى كتابتــــه أى أثر لحالة العزلة التى اضطر اليها ، ولا أى كلمة تنم عن الشكوى مما آل اليه مصيره · بل كان المجال كله خالصــــا للعقل الهادىء المتزن ، والنظـرات الفلسفية الشاملة ، والمشاعر النبيلة التى تؤمن بالرسالة الحضارية للانســان · لقــد لخص كوندورسيه رأيه فى مستقبل البشرية بقوله · « كل الظواهر تدل على أننا على أبواب عصر سيحقق ثورة من أكبر الثورات التى حدثت فى حياة النوع الانسانى · وتضمن لنا الحالة الراهنـــة للمعارف الانسانية أن هذه الثـورة ستحقق الســـعادة للبشرية » ·

وعندما انتهى كوندورسيه من كتــابة هذا المؤلف بدأ يساوره الخوف من أن تكون اقامته عند مدام فرنيه سببا فى جلب الايذاء له · فخرج من عندها ذات صباح ، رغم رقابتها الشديدة لمنعه من القيام بهذه المحاولة ، واتجه الى ضاحية « فونتنى أو روز « Fontenay-aux-Roses » حيث يقطن أحد أصدقائه القدامى · ولكن هذا الصديق لم يقبله عنده أكثر من أربع وعشرين ســـاعة · وخرج كوندورسيه مرة أخرى الى الشارع واحتمى فى أحـــد المحاجر فى سهل مونروج Montrouge وكان لا يخرج منه الا ليلا · ثم اضطره الجوع والجرح الذى أصابه فى ساقه الى الخروج يوما بعد الظهر ، ودخل الى أحد المطاعم حيث طلب غداء لا يتفق مـــع هيئته الزرية ، فارتابت

صاحبة المطعم فى أمره ، وأبلغت عنه سلطـــات الأمن ، فقبض عليه وسيق الى السجن .

وعندما فتح الحراس فى الصباح أبـواب زنزانته لاستجوابه وجدوه جثة هامدة ، اذ كان قد تجرع جرعة قوية من السم مخبأة فى أحد خواتمه وبهذه النهاية المحزنة انتهت حيـــاة ذلك المفكر الذى آمن بخـير البشرية فى المستقبل ، وهى تذكرنا بنهاية سقراط الذى كان أول من أرسى دعائم الخير على المعرفة .

وكانت وفــاة كوندورســـيه فى يوم ٨ ابـريل عام ١٧٩٤ .

مؤلفاته :

اذا تركنا جانبا ما كتبه كوندورسيه فى الرياضيات فانه يمكن تصنيف مؤلفاته فى ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول ويشمل المؤلفات التاريخية والتى تحوى سجل حياة بعض العظماء ـ والقســـم الثـانى يتضمن المؤلفات السياسية والاجتماعية ـ والقسم الثالث وهو يحتوى على المؤلفات ذات الطابع الفلسفى الصرف .

وقد يكون هذا التصنيف ناقصا أو تعسفيا اذ أن بعض كتابات كوندورسيه قد يصعب ادخالها فى أى من

هذه الأقسام • ولكن تبرره ، على أى حال ، رغبة الباحث في تحليل آرائه على أساس منهجى •

أما القسم الأول : فيحتوى أولا على المقالات التى كتبها فى « تخليد » ذكرى بعض شخصيات عصره من الفلاسفة والعلماء • وهذه التمجيدات « Les Eloges » كثيرة تبلغ حوالى الثمانين مقالا وتمتد من عام ١٧٧٢ الى عام ١٧٩١ • ومن أشهر الشخصيات التى مجدها : بسكال ، ولينيه ، ودالمبير ، وتورجو •ولم يتبع كوندورسيه فى كتابة تمجيداته الأسلوب التقليدى الذى يقتصر على المديح وذكر المناقب ، اذ أنه لم يتردد فى النقد وابداء التحفظات اذا وجد أن آراء من يكتب عنهم تستدعى ذلك : فمثلا بالنسبة لبسكال يعجب كوندورسيه أيما اعجاب بمواهبه العلمية ، وصفاته الخلقية ، ويشيد بأسلوبه • ولكنه يرى أن تعلقه المتعصب بالعقيدة والشعائر الكاثوليكية قد حال بينه أحيانا وبين انماء فكرته والوصول بها الى غايتها الطبيعية • ومما قاله فى هذا الصدد « أن بسكال كان معاصرا لديكارت ولكن لم يكن له ، مع ذلك ، أى نصيب فى تقدم الفلسفة • ونستطيع أن نجد فى اختلاف صفات كل منهما السبب الذى منع بسكال من أن يسهم فى تلك الثورة الفلسفية الكبرى التى أثارها ديكارت فى العقول ، وأصبحت احدى دعامات الجنس البشرى لتحقيق السعادة ، اذا كان تحقيق السعادة ممكنا ، لقد كان كل من بسكال وديكارت عالما كبيرا فى الهندسة ،

وكانت لهما مواهب متكافئة ، ومع ذلك فان طريقة كل منهما في النظر الى الفلسفة كانت تتعارض مع طريقة الآخر • فكان ديكارت يحتقر الأفكار التقليدية ، ولذا بدأ باطراحها جميعا ، وأحل محلها الأفكار التى استوحاها من تأملاته الفلسفية • أما بسكال فكان على العكس مليئا بالاحترام للأفكار التقليدية التى رسخت فى الأذهان مع الزمن ولم يكن يتركها الا حينما تجبره على ذلك البداهة ذاتها • وكان يخاف من الغلو فى الثقة بالعلوم ، ومن الاهتمام بتعميقها حتى لا تعتقد العقول الطيبة أن العلوم هى وحدها الجديرة بالعناية وأن الناس يجب ألا يسيرون فى حياتهم الا على هدى التجربة الحسية والحساب الدقيق » •

توضح لنا هذه العبارات وغيرها كيف كان كوندورسيه يفهم فكرة « التمجيد » ، اذ كان يجعل منه تاريخا نقديا حافلا بوجهات النظر المتعددة التى تمتع القارىء وتبعده عن السأم •

ونضيف الى « التمجيدات » سير الحياة التى كتبها ، وأهمها ، حياة تورجو ، وحياة فولتير ، وبالنسبة لهذا الأخير أراد كوندورسيه بصفة خاصة أن يعرفه للناس على حقيقته ويجعلهم يحبونه وتشهد بذلك الخاتمة التى قال فيها • « لقد كان اعجاب الناس بفولتير أكثر من معرفتهم به • ولكنا نرى أن السم الزعاف الذى كان يسرى

فى بعض كتاباته السياسية ، لا يمنع من وجـــود عاطفة نبيلة ، وطيبة أصيلة تسيطر دائما على نشاطه • لقد كان فولتير يحب التعساء أكثر مما كان يكره أعداءه • ولم يكن حب الشهرة لديه إلا خاضعا لعاطفة أكثر نبلا وهى حب الانسانية • ولا يوجد من أمثال فولتير الا القليل من الرجال الذين استطاعوا أن يشرفوا حياتهم بأكثر ما يمكن من الأعمال الخالدة ، وأن يدنسوها بأقل ما يمكن من النفاق والملق » •

أما حياة « تورجو » فيبدو أن كتابتها كانت فرصة لكوندورسيه لتثبيت آرائه السياسية ورســـم برنامجه للعمل الاجتماعى • ولذا فهى من هذه الناحية ذات أهمية قصوى • ونستطيع أن نجد فيها اشارة لبعض الآراء التى يجىء تفصيلها فيما بعد فى مؤلفه الكبير « مخطط لتقدم العقل البشرى » •

القسم الثانى :

الكتابات السياسية والاجتماعية :

تحتل هذه الكتـــابات جزءا أكبر بكثير مما تحتله الكتابات التاريخيـــة فى المجمـــوعة ، الكاملة لأعمـــال كوندورسيه ، ومن الطبيعى أن يكون تاريخها فى الحقبة التى اشتغل فيها كوندورسيه ، فى الوظائف العـــامة ،

أو لعب دورا فى السياسة · ومع ذلك فهناك بعض كتابات من هذا النوع سابقة على تلك الحقبة مثل « خواطر عن أنواع السخرة » ، و « الاحتكار والمحتكر » ، و « خواطر عن التشريع الجنائى (٣) كما كتب أيضا عن حرية الصحافة ·

ولكن من عام ١٧٨٦ الى عام ١٧٩٤ يتميز نشاط كوندورسيه بكتابة عدد كبير من ، الخواطر ، والمقالات ، والأفكار ، والمشروعات ، والأبحاث ، والأحاديث والاختبارات ، والتقارير ، الخ ·· وكلها تشهد بتنوع الموضوعات التى طرقها ، وبالنشاط العجيب لصاحبها ، وقد وزد منها فى الطبعة الكاملة لمؤلفاته مائة وستة وعشرون بحثا ، ومن ضمنها خمسة بحوث هامة عن تنظيم التعليم العام ·· ويسرى من خلال هذه البحوث المتنوعة تيار واحد يحمل القارىء على الشعور بأن وراء كل سطر تكمن الرغبة فى المنفعة وتحرى الحقيقة ·

أما كتاباته السياسية فلم يكن هنـاك ما هو أكثر منها بعدا عن روح الفوضى أو « الديماجوجية » وعزوف عن الصعود عن طريق تملق شعور الجماهير · وقد كرس احدى مقالاته لفضح أساليب «الديماجوجية» وهى بعنوان:

---

(٣) Rtflexious sur les Corvées — Monopole et monopoleur — Réflexions sur la jurisprudence criminelle.

« الصديق الحقيقى والصديق الزائف للشعب» (عام١٧٩١)٠
ومما جاء فيهــا : « يبحث ديماجوراس (ويرمز به الى الديماجوجى أو المهرج السياسى) بعناية ما هى الاتجاهات التى تروق الغوغاء فيبالغ فيهـــا ، وما هى العواطف الجامعـــة التى تحرك الشعب فيتملقهــا ٠ وهو يصفق لأنواع المظالم التى يرتكبها الشعب ، ويبرر ما ينصرف اليه من العنف ، ويبارك عيوبه ٠ وهو يوافق على كل ما يقوله الشعب ، لا فى المجالس الرسمية (حيث يقف العقلاء له بالمرصاد ، بل وسط حشود الشوارع والأزقة ٠ أما صديق الأمة الحقيقى فهو ، فيلودم « Philodème الذى لا يصعد الى المنصة الا ليقدم للشعب نصائح نبيلة ونافعة ، وهو يقول ما يعتقد أنه الحق دون أن يســـتجدى التصفيق أو الهتاف ٠ واذا كان للشعب آراء خاطئة فانه يحاربها ، واذا اقترف أخطاء فانه يلومه عليهــا ، بل يجبره ، اذا استطاع على أن يصلحها ٠ وهو قد يتعرض لغضب الشعب فى سبيل أن يجنبه اقتراف الجريمة ٠ واذا كان الآخرون يثيرون عواطفه وانفعالاته فان « فيلودم » يبحث عن الوسيلة لتبديد مخاوفه الوهمية وشكوكه السخيفة ٠ وهو يرثى لحال المخدوعين ، ويحتقر المحرضين ، واذا تعرض للوشاية واجهها بتقديم حياته كلها لخدمات جديدة » ٠

هذه ، بلا شك ، هى صورة كوندورســـيه نفسه ويكاد القارىء يقطع بهذا الرأى بعد الانطباع الذى يخرج به من قراءة العديد من كتاباته السياسية ٠

القسم الثالث :

مؤلفاته الفلسفية :

تعتبر هذه المؤلفات قليلة نسبيا بالقياس الى النوعين السابقين ، كما يجب أن نفهم كلمة ، فلسـفة فى هذا المجال على النحو الذى فهمها به القرن الثامن عشر اذ كانت تدخل فيها ، حتى ذلك الحين بحوث الرياضيات العليا ، والفلك ، والسياسة والاجتماع ٠

وأول هذه المؤلفـات « مقـال الاسـتقبال » فى الأكاديمية الفرنسية ٠ وقد عالج فيه ـ كما ذكرنا من قبل ـ طريقة تحقيق الاندماج بين العلوم الأخلاقيـه ، والعلوم التجريبية ٠

ويأتى بعد ذلك « المقال عن العلوم الرياضـية » (١٧٨٦) ويحتوى على تاريخ للرياضيات منذ فيثاغورس حتى ، أولر ، Euler ودالمبير ثم يختتم ببعض الآراء عن أهمية الثقافة الرياضية ٠

ثم المقال عن الفلك وحساب الاحتمالات ، (١٧٨٧)،

ويهتم بتوضيح أهمية نيوتن ودى برنولى De Bernouille فى تاريخ العلوم التحقيقية ٠

ثم يأتى المؤلف الكبير الذى تتعــرض ، فى هذا البحث ، لتحليله وهو « المخطط لتاريخ تقدم العقــل البشرى » ٠ وهذا الكتاب يدخل كوندورسيه فى عداد كبار فلاسفة التاريخ ٠ وهو يقسمه الى عشرة فصول ، يكرس كل فصل منها لعصر من عصور الحضارة ٠ ويبدأ فى الفصل الأول من الاختراعات الساذجة للانسان البدائى حتى ينتهى فى « الفصل التاسع » الى الكلام عن اكتشافات عصره ٠ ويجعل الفصــــل العاشر والأخير لتنبؤاته عن المستقبل ، ويجمع فيــه بين دقة المؤرخ ورومانتيكيــة المتنبىء ٠

ويعتبر كوندورسيه من الفلاسفة الذين يعبرون عن روح عصرهم خير تعبير ٠ اذ أنه أبرز فى قوة ووضــوح قيمة الثروة العقلية والفكرية التى تجمعت فى القــرن الثامن عشر ، الذى أطلق عليه بحق « عصر التنوير » ٠ وتكمن قيمة كتاباته وآرائه فى أنها تعطى لنا صــــورة دقيقة عن هذا العصر بحيث يمكن القول أن كوندورسيه يعبر وحده عن فلسفة القرن الثامن عشر بأكمله ٠ وقد يتساءل البعض : وأين فولتير ، وديدرو ، ومنتسكيو ، ودالمبير ، وهلفتيوس ، وكوندياك ؟ ألا يعبر هؤلاء أيضا

عن القرن الثامن عشر ؟ حقـــا ان كلا من هؤلاء يعبر عن جانب أو عن بعض جوانب الحركة الفكرية فى ذلك القرن، ولكن أحدا منهم لا يعبر عما اشتمل عليه من اتجاهات ، وما اصطرع فيه من أفكار مثلما عبر كوندورسيه ٠

ولما كان كوندورسيه أحد كبار المشتغلين بالرياضيات فى عصره فقد أولى اهتماما كبيرا لتطبيق المناهج الرياضية على العلوم الأخلاقية ٠ وأطلق على أحد بحوثه الرئيسية فى هذا الميدان اسـم « الرياضـــــة الاجتماعية La mathématique Sociale » وهو يطبق فيه مناهج الرياضة على دراسة عدد من المسائل الاجتماعية ، فيحاول أو يعرف مثلا معدل الوفيات فى هذا البلد أو ذاك ، ويربطه بمستوى المعيشة ، ونوع الحرفة ، أو يدرس بعض الأنظمة الانتخابية ليقرر مزايا نظام معين أو عيوب نظام آخر ، أو يدرس نظم التأمين ليحدد نسبة ما يجب أن يدفعه المؤمن عليه ٠

وهو ينظر الى الانسان أولا بوصفه فردا ، فيحاول أن يحدد بدقة ، مستندا الى الحقائق الثابتة ، تأثير المناخ عليه ، وكذلك تأثير العادات والحرف على معدل الأعمال ، ثم ينتقل بعد ذلك الى دراسة قوانين الحياة الاجتماعية ٠

وينطوى هذا العـــلم الجديد ، الذى يجعـــل من كوندورسيه أحد الرواد الأوائل لعلم الاجتماع الحديث ، على ثلاثة مبادىء رئيسية وهى :

١ ــ تحديد الظواهر ٠

٢ ــ محاولة تقويمها ٠

٣ ــ النتائج التى تستخلص من دراســـة هذه الظواهر ٠

وهو يقسم الظواهر الى طائفتين : الظواهر الحقيقية أو الواقعية ، وهى التى نلاحظ حدوثها بالفعل ، والظواهر الاحتمالية وهى التى يمكن أن نتوقع حدوثها نتيجة لالتقاء عناصر متعددة من عناصر الحياة الاجتماعية المتشابكة ٠

واذا لوحظت ظاهرة بعينها عدة مرات ، وبدت لنا منطوية على بعض الاختـــلافات ، فان هذه الاختـــلافات ترجع ، فى الحقيقة ، الى خطأ فى احدى الملاحظات ٠ وفى هذه الحالة يجب أن نبحث بين هذه الملاحظات عن واحدة تكون أكثر اقناعا لنا بأنهـــا تمثل حقيقـــة الظاهرة ٠

اذ لا يوجد ، فى أغلب الأمر ، سبب بعينه يجعلنا نتشبث بملاحظة دون غيرها ٠

وقسم كوندورسيه موضوعات الرياضة الاجتماعية على النحو الآتى :

١ ــ الانسان :

(أ) الانسان الفرد ٠

(ب) العمليات العقلية الانسانية ٠

٢ ــ الأشـــياء :

ارجاع الأشياء الى مقياس مشترك ، باســتخدام نظرية القيم ٠

٣ ــ الانسان والأشياء : ويتضمن منهج هذا البحث

(أ) تحديد الظواهر وتقسيمها الى :

١ ــ ظواهر ملاحظــة

٢ ــ وظواهر احتمالية ٠

(ب) احصــــاء الظواهر وتصنيفها ومعرفة طرق تآلفهــا ٠

(ج) تقدير الظواهر للوصـــــــول الى القيمة الوسـطى ٠

(د) نتائج الظواهر وامكانات تطبيقاتهــا العملية

ومن ناحيــة دراسة الانســان يرى كوندورسيه أنه يتأثر بدرجة حرارة الجو ، وبطبيعة التربة ، وبالغذاء ، وبالعادات السائدة ، وبالنظم الاجتماعية ويمكن أن نستخدم المنهج الرياضى لمعرفة كيف تؤثر هذه العوامل المختلفة على طول مدة الحياة وعلى العلاقة بين عدد أفراد كل من الجنسين سواء أكان ذلك عند الولادة أو فى طبقات العمر المختلفة ، وعلى نسبة الزواج ، وحالات الفردية والترمل بالقياس الى مجموع السكان ٠ ويمكن أيضا معرفة أثر هذه العوامل على حالات الوفاة بين الطبقات والحرف المختلفة ٠ ونستطيع أن نحـــاول كذلك معــــرفة أثر هذه العوامل على القوة العضلية وعلى طول الأفراد وأشكالهم ، بل وعلى صفاتهم الخلقيـــة ٠

وفى دراستنا لهذه العوامل يمكن النظــــر الى تأثير كل منها على حدة ، أو الى تأثير طائفة منها مجتمعة ٠ وفى

هذه الحالة الأخيرة يجب أن نختبر اذا كان تأثير العوامل مجتمعة يختلف عن تأثيرها متفرقة والى أى حد يكون اندماجها سببا فى تخفيف أو مضاعفة ما تحدثه من أثر ٠

ولا تطلعنا الملاحظة ، بطبيعة الحال ، الا على وجود تلازم بين أحد العوامل باعتباره ، سببا ، وبين الظاهرة الملاحظة على أنها نتيجة ويتعين بعد ذلك أن نحدد ، باستخدام حساب الاحتمالات ، اذا كان يجب أن نعتبر هذا التلازم ناتجا عن قانون ثابت أم لا ، أو بمعنى آخر اذا كانت النتيجة يجب أن تعزى الى السبب الذى نفترضه لها ، أو الى مجرد الصدفة أو وجود سبب آخر مازلنا نجهله ٠

الأفكار الرئيسية فى « المخطط التاريخى لتقدم العقل البشرى » ٠

ننصرف الآن الى تحليل المؤلف موضوع بحثنا ، وابراز بعض فقراته الهامة ٠

يميز كوندرسيه بين طريقتين لدراسة الملكات الانسانية ٠ وتتلخص الطريقة الأولى ، كما ذكرنا من

قبل ، فى البحث ـ بطريق الملاحظة ـ عن الظواهر العامة وعن قوانين نمو هذه الملكات • أما الطريقة الثانية فتهتم بدراسة العقل البشرى من خلال النتائج التى توصل اليها بنشاطه ، وتحديد المحصلات المادية والمعنوية التى أضافها كل جيل الى الأجيال التى سبقته • أى أننا فى هذه الحالة لا تهمنا دراسة « مكانزم » التفكير فى صورته المجردة in abstracto ، بقدر ما يهمنا معرفة مراحل تطوره الفعلى •

ويمكن القول أن آراء كوندرسيه عن التقدم البشرى قد مهد لها ، فى العصور الحديثة ، عدد من الفلاسفة والمفكرين • فكتب « بسكال » ان « تعاقب البشر خلال القرون الطويلة المتلاحقة يجب أن ينظر اليه كوحدة مستمرة ، تزداد معارفها بصورة مضطردة » • وأعلن « ديكارت » ايمانه بتحقيق الانسان للكمال • وكذلك كان « بيكون » يؤمن بالتقدم اللانهائى للمعرفة الانسانية • كما كان تفاؤل « ليبنتز » يشتمل على وجود الرغبة المتأصلة والمتصلة فى نفوس جميع الكائنات لتحقيق حالة أفضل •

غير أن واحدة من هذه الفلسفات لم تكن تنطوى على نظرية كاملة للتقدم البشرى بالمعنى الذى وضعه كوندرسيه ، واقتبسه القرن التاسع عشر من بعده •

وتحددت هذه الأفكار الغامضـــة ، بعض التحديد ، عند « تورجو » اذ كان أول من حاول أن يستخلص من التاريخ فلسفة للتقدم . فكتب فى مقـــاله الأول عن « التاريخ العالمى » (١٧٥٠) : « ان النوع البشرى فى مجموعه ، يتعاقب بين الهدوء والحركة ، يسير دائما ، ولو بخطوات بطيئة ، نحو تقدم أعظم » .

فالتقدم اذن « ضرورة » ، أما التدهور أو النكوص فهو « عرض » والتقدم يعبر عن قانون التاريخ نفسه ، على حين أن التدهور يعبر عن الالغاء المؤقت لهذا القانـــون . وكل جيل من أجيال الانسانية يرتبط ارتبـاطا وثيقـــا بالأجيال التى سبقته ويعتمد عليهـــا . وهذه الحتميـة التاريخية هى ضمان التقدم الانسانى .

هذا هو المبدأ الذى يفصله كوندرســـــيه فى قوة ووضوح لا نظير لهما ، معتمدا على منهج تاريخى صرف . فيقول فى مقدمة مؤلفه :

« هذه اللوحة التى أقدمها تاريخية ، لأنى كونتها عن طريق الملاحظات المتتابعة للمجتمعات الانسانية فى العصور المختلفة التى مرت بها . وهى لذلك يجب أن تبرز ترتيب التغيرات ، وتعرض التأثير الذى تحدثه كل حقبة من الزمن فى الحقبة التى تليها ، وتبين على هذا النحـو ـ

من خلال التحولات التى طرأت على النـــوع البشرى فى محاولاته المستمرة لتجديد نفسه ـ الطريق الذى سلكه ، والخطوات التى قطعهـــا للوصـــول الى « الحقيقة » و « السعادة » • وهذه الملاحظات عما كان عليه الانسان فى الماضى ، وعما هو عليه اليوم ، سنوصلنا بالضرورة الى الوسائل التى من شأنها أن تؤكد أنواع التقدم المنتظرة ، وتسرع بتحقيقها وفقا لما تقتضيه طبيعته •

« ذلكم هو الهدف من هذا المؤلف الذى ســتكون نتيجته الرئيسية أن يوضـــح ـ تارة بالوقائع وتــارة بالاستدلال المنطقى ـ أنه لم يكن هناك قط أى حد نهائى لاكتمال القوى والملكات الانسانيـــة ، وأن التقدم نحو الكمال ، بعد أن تحـرر من كل قوة تعوقه ، لايخضـــع الا لعامل لزمن ومدة استمرار الحياة على سطح الأرض • ومما لاشك فيه أن من ضروب هذا التقدم ما سيســـير بسرعة ، ومنها ما سيسير ببطء ، ولكن هذا السير لن يعود القهقرى مادامت الأرض تحتل دائما مكانها فى النظـام الكونى ، ومادامت القوانين العامة لهذا النظام لا تحدث على الأرض انقلابا عاما أو تغيرات عميقة لا تســمح للنوع البشرى الاحتفـاظ بنفس الملكات واستخدامها على النحو الذى ينشده •

« وأول حالات الحضارة التى أمكن ملاحظتها عند النوع البشرى هى حالة مجتمع يتكون من عدد قليل من الأفراد يعيشون على القنص وصيد الأسماك ، ويمارسون فنا بدائيا فى صنع بعض الأسلحة البسيطة والأدوات المنزلية ، أو فى بناء المساكن أو حفر الكهوف • وكان لكل من هؤلاء الأقوام لغة يتفاهمون بها ، وعدد قليل من الأفكار الخلقية التى يستخلصون منها قواعد عامة للسلوك • وكانوا يعيشون فى نظام عائلى ، ويخضعون حياتهم لأعراف عامة تحل لديهم محل القانون • بل ان منهم من كان لديهم شكل بدائى من أشكال الحكومة •

« ولاشك أن حالة القلق التى كان يعيش فيها النوع البشرى ، وصعوبة الحصول على عيشه ، وتعاقب فترات يومه بين العمل المضنى ، والراحة المطلقة ، كل ذلك لم يترك لديه فرصة أو فراغا يخلو فيه لأفكاره ويعمل على تنمية ذكائه باستنباط وسائل جديدة • بل ان وسائل اشباع حاجاته ظلت مدة طويلة تخضع للصدفة البحتة ، ولتأثير الفصول المناخية بحيث لم تكن تسمح بظهور اتجاه نحو صنعة تنتقل من جيل الى جيل • واكتفى كل فرد بأن يحسن مقدرته وكفاءته الذاتية • « وعلى هذا النحو تعين أن تكون أنواع التقدم التى أحرزها النوع البشرى بطيئة جدا فى مراحلها الأولى ، ولم يتحقق هذا التقدم الا على فترات متباعدة حين كانت تدفع اليه ظروف قاهرة

ومع ذلك ، نجد أن الانسان بعد أن كان يعتمد على القنص والصيد وبعض الثمار التى تمنحها الطبيعة ، أصبح فى مرحلة تالية يستعين فى غذائه بنتـــاج الحيوانات التى استطاع أن يستأنسها ويحتفظ بها ويكثر من سلالتها ، ثم ما لبث أن أضاف الى هذه الوســيلة فلاحـــة الأرض ، ولم يعد يكتفى بالثمار أو النباتات التى يلتقطها مصادفة ، بل تعلم بذر البذور ورعايتها بالعمل اليدوى والأدوات البسيطة ، وجمع المحصول واختزانه لوقت الحاجة •

« وكانت الملكية فى الحالة البدائية قاصرة على الفريسة التى يقتنصها الانسان بنفسه ، وعلى الأسلحة والشباك ، ثم امتدت الى القطيع المستأنس ، وبعد ذلك الى الأرض التى تزرعها الأسرة أو القبيلة • ثم دعا وجود فائض فى ناحية ، ونقص فى ناحية أخرى الى خلق فكرة « التبادل » ، ومنذ ذلك الحين ازدادت العلاقات الأخلاقية والقانونية تعقيدا •

« وحين توفرت فرصة أكبر للأمن ، وتحقق نوع من الفراغ فى فترات منتظمة ، استطاع الانسان أن ينصرف الى التأمل أو على الأقل الى الملاحظة المتتابعة • ثم اعتـاد بعض الأفراد أن يستبدلوا جزءا من فائض ما يملكون نظير « عمل » يقدمه لهم الغير ، وسمح لهم ذلك بأن يتخففوا ، هم أنفسهم ، من هذا العمل فنشأت بذلك طبقة من الناس لا تصرف وقتها كله فى العمل الجسدى الشاق ، وامتدت

رغباتها الى أبعد من الوفـاء بالحاجات المادية • فتقدمت الفنون التى كانت معروفة من قبل ، وأدت ملاحظـات الانسان الأكثر خبرة ، والأكثر مرانا الى خلق فنون جديدة وازداد عدد السكان بقدر ما أصبحت وسائل الحصول على العيش أقل صعوبة وأكثر تقدما • وأصبحت الأفكار المكتسبة تنتقل وتنتشر بسرعة بين أفراد مجتمع أصبح أكثر استقرارا وأكثر تقاربا بفضل نظام الزراعة •

« ويمكن القول أن فجـر العلم بدأ يبزغ فى ذلك الحين ، اذ استطاع الانسـان أن يميز نفسه عن الأنواع الأخرى من الحيوان ، ولم يعد ، مثلها ، يقتصر لاشباع حاجاته على ما تمنحه الطبيعة • وكذلك لم يعد التقدم الذى يحرزه قاصرا على القدرات الفردية ، بل أصبح ذا طابع اجتماعى •

« ثم ما لبثت العلاقات الأكثر اتساعا والأكثر تعقيدا أن جعلت الناس يشعرون بضرورة ايجاد وسـيلة لنقل أفكارهم الى الأفراد الغائبين أو البعيدين ، وتثبيت ما تعيه الذاكرة فى صورة أكثر دقة من مجرد النقل الشفوى ، واثبات شروط اتفاق بشكل أكثر تأكيـدا من شـهادة الشهود ، وتحقيق نوع من الالتزام للعادات التى اتفق الأفراد على اخضاع سلوكهم لهـا • فنشأت الحاجة الى « الكتابة » ، ويبدو أنها كانت فى بادىء أمرها عبارة عن

نقوش ورسوم توضح السمات البارزة للأشياء ، ثم أخذت تعبر بعد ذلك ، بطريق الاستعارة ، عن الأفكار المعنوية • وأصبحت الكتابة هي فن التعبير ، بعلامة اتفاقية ، عن كل فكرة وكل كلمة • وبالرغـــم من أن عدد هذه العلاقات محدود ، فقد توصل الانسان لأن يكون منها عددا لا نهاية له من التركيبات اللغوية ، وذلك بعد أن عدل تصميم هذه العلامات ، وجعلها ، بدلا من أن تدل على المعانى ، تعبر عن العناصر البسيطة التى تتكون منها الكلمات • وبذلك نشأت الحروف الهجائية التى حققت خطوة كبيرة فى طريق تقدم النوع البشرى » •

ويدعونا كوندورسيه بعد ذلك الى ملاحظة ثلاثة أجزاء متميزة فى اللوحة التى يرسمها عن مراحل التقدم :

« ففى الجزء الأول حيث تدل أقوال الرحـــالة على الحالة الفطرية للنوع البشرى ، كما شـــاهدوها عنـــد الشعوب المتأخرة ، لا نستطيع الا أن نعتمد على التخمين فى تصور المراحل التى مر بها الانسان من حالة الوحشية الى حـــالة التجمع البسيط مع أقرانه لتأمين حياته وزيادة نسله ، وكيف استطاع بعد ذلك أن يدخل التحسينات على حياته حتى توصل فى النهاية الى استخدام اللغة • وهذه

المرحلة الحاسمة الى جانب مبادىء التنظيم الاجتماعى ، وبعض الأفكار الخلقية هى التى ميزت الانســـــان عــن الحيوانات التى كانت تعيش مثله فى جماعات :

« أما الجزء الثانى فنعتمد فيـــه على الوقائع التى يمدنا بها التاريخ • ولكن يجب أن نختــار هذه الوقائع بحيث تحقق النظرة الشـــاملة الى الشعوب المختلفة ، ثم نقرب بعضها من بعض ونقارن بينها ونحاول الربط بين أجزائها المتنــاثرة لنستخلص فى النهــاية صورة صحيحة لتقدم النوع البشرى فى مجموعة •

« أما الجزء الثالث فهو ما يتعلق برســـم صــورة لآمالنا فى المستقبل ، ولأنواع التقدم التى ستحققها الأجيال القادمة • وهذه الصورة لاتعتمد على التخمين بل على تتبع الأحداث حتى نهايتها ، والاعتماد على القوانين الثابتة التى تم الوصول اليها بالفعل • وحينئذ يتضح لنا أن ما قد نعده اليوم خياليا سوف يصبح ممكنا بل ومن السهل تحقيقه • كما سيظهر لنا انه بالرغم من النجاح العابر للأســاطير والأفكار المتسلطة التى تشجع الحكومات الفاســـدة على بقائها ، لابد وأن تحصل « الحقيقــة » وحدها على النصر النهــائى • وستبدو واضحة كذلك الروابط الوثيقة بين تقدم المعارف والاستنارة العقلية من ناحية ، وبين تقدم

الحرية والفضيلة واحترام الحقوق الطبيعية للانسان من ناحية أخرى • « وسنلاحظ أنه فى جميع الأزمنة والأمكنة هناك أفكار متسلطة وخرافات تختلف تبعا لدرجة ثقافة الطبقات المختلفة من الناس ، وتبعا لحرفتهم • فاذا كانت الآراء التعسفية التى يتشبث بها الفلاسفة تسىء الى كل تقدم جديد للحقيقة ، فان الآراء المتسلطة على عقول الطبقات الأقل ثقافة تؤخر انتشار الحقائق التى أصبحت معروفة ، على حين أن الأفكار المسيطرة على عقـول بعض الفئـات المهنية من ذوى النفوذ والسلطان تشكل عقبات كأداء أمام الحقيقة • هذه هى الأعداء الثلاثة التى يتعين على العقل أن يحاربها بلا هوادة • وهو لا يتغلب عليهـا ، فى معظـم الأحيان ، الا بعد كفاح طويل وشاق • ولذلك فان تاريخ هذا الكفاح ، وتتبع مولد الخرافة وانتصارها ثم سقوطها النهائى سوف يحتل مكانا كبيرا من هذا البحث ، ولن يكون أقل أجزائه أهمية ولا أقلها نفعا •

« والآن هل نستطيع أن نقول اننا وصلنا الى المرحلة التى لا مجال للخوف فيها من وقوع أخطاء جديدة فى حق الانسانية ، أو الرجوع الى الأخطاء القديمة ؟ وهل أصبحنا فى مأمن من أن يعود للظهور نظام فاسـد يقدمه لنا « النفاق » ، ويرحب به « الجهل » ، ويباركه « الحماس » الأهوج ؟ وهل نضمن الا تحدث التدبيرات الخبيثة صدعا فى صرح الانسانية ، وتسبب لها الشرور ؟ اننا بكل أسف

مازلنا بعيدين عن هذه الغاية • ولذلك فلا ضرر من التعرض خلال هذا البحث للوسائل التى كانت تستخدم لخداع الشعوب ، أو افسادها ، أو دفعها الى هاوية الذل والفقر •

« وتدل كل الدلائل على أننا قادمون على عصر سوف يشهد أعظم الثورات التى يحققها النوع البشرى • فما الذى يهيىء أذهاننا الى ما يجب أن ننتظره منها ؟ وما الذى يكون بمثابة الدليل الصادق الذى يقودنا وسط هذه الحركات العارمة ؟ هل هناك ما هو أفضل ، فى هذا المجال ، من عرض تاريخ الثورات السابقة ، التى كانت تمهيدا واعداد للثورة الحاسمة الكبرى ؟ أن عصر التنوير الذى نعيش فيه يضمن لنا أن هذه الثورة ستكون منطوية على السعادة ، ولكن بشرط أن نعرف كيف نستخدمها ونسخر لها كل قوانا •

« فلكى لا ندفع ثمنا باهظا فى الحصول على السعادة التى يعدها لنا مستقبل البشرية ، ولكى تنتشر هذه السعادة بأسرع ما يمكن ، وتعم أكبر عدد من الأفراد والجماعات ، ولكى تكون سعادة كاملة فيما نحققه من ثمرات ، ألا نجد أننا فى حاجة لدراسة تاريخ العقل البشرى لنتعرف على العقبات التى مازالت تهددنا ، وعلى الوسائل التى يمكن استخدامها للتغلب عليها ؟ » •

ونستطيع أن نلاحظ فى دراسة كوندورسيه مراحل متميزة تعبر كل مرحلة منها عن سمات أساسية فى تقدم العقل البشرى • فيتكلم أولا عن « تجمع أفراد البشر فى جماعات وأقوام » وتكوين الأسرة واختراع الأسلحة للدفاع عن النفس ونشأة اللغة ، على نحو ما بينا فيما سبق • ثم ينتقل فى المرحلة الثانية الى الكلام عن « حضارة شعوب الرعاة» وظهور فكرة الايمان بالقوى الروحانية ، والاستعانة برصد النجوم الذى أدى الى ظهور علم الفلك • وفى المرحلة الثالثة يتكلم عن « العصر اليونانى حتى عهد الاسكندر وفى المرحلة الرابعة يتكلم عن « تقدم العلوم منذ تقسيمها فى عهد أرسطو حتى تدهورها فى العصر الوسيط • وفى المرحلة الخامسة يتكلم عما حققه العقل البشرى من تقدم « منذ ديكارت حتى تكوين الجمهورية فى فرنسا » ثم يكرس الجزء السادس والأخير من دراسته لما يتنبأ به من « أنواع التقدم فى المستقبل » •

وتسيطر على هذه الدراسة فى مراحلها المختلفة فكرة « الحتمية التاريخية والاجتماعية » • غير أن كوندرسيه ينفى أن تكون هذه « الحتمية » عقبة فى التطلع الى مثال أعلى ، بل يرى أنها وحدها تسمح بتصـــور هذا المثـال وبامكان تحقيقه بطريقة تكون أكثر قربا من اليقين كلما كانت معرفتنا بالماضى والحاضر أكثر وثوقا • واذا لم نصل

الى درجة اليقين المطلق فاننا نحقق على الأقل احتمالات تزداد درجتها بازدياد عدد الملاحظات السابقة ودرجة دقتها. « فالملاحظة المحايدة ، والحكم الصائب يكفيان فيلسوف التاريخ كما يكفيان عالم الفيزيقا » .

ويضيف كوندرسيه الى الحتمية الاجتماعية فكرة توجيه العالم عن طريق « الذكاء الانسانى » . وهو يقول :

« ان تقدم الأخلاق والنظم يعتمد على تقدم المعارف ». وهذه الفكرة التى كانت غامضة عند تورجو تظهر عند كوندرسيه فى تحديد ووضوح لا يقلان عما جاء بعد ذلك عند « أوجست كونت » حين أعلن « قانون الحالات الثلاث ، وهو ذلك القانون الذى يفسر أشكال التطور الاجتماعى بموقف العقل البشرى ازاء تفسير مشكلات الطبيعة . « فمستوى معيشة الانسان ، كما يرى كوندرسيه ، يتحدد بقدر تفكيره ، ويستطيع عقله أن يعرف المصائر التى تنتظره ، لأن العقل هو فى الحقيقة الذى يحدد هذه المصائر .

وفى تحليل كوندرسيه لما اكتسبه العقل البشرى من تقدم فى « مرحلة حضارة الرعاة » يقول :

« عندما أدرك الرعاة بالفطنة مدى الفائدة التى تعود عليهم من ملاحظة النجوم ، وأصبح ذلك أحد شواغلهم فى سهراتهم الطويلة ، بعد أن أتاحت حياة الرعى لهم ساعات

طويلة من أوقات الفراغ ، أمكن تحقيق تقدم طفيف فى علم الفلك .

« وتأسست فى هذه المرحلة قواعد عبادات منتظمة ، وتهذبت الأفكار الداعية الى الايمان بقوى خارقة للطبيعة ، والى جانب ذلك ظهرت فئة من الرؤساء الروحانيين هنا ، أو بعض العائلات المقدسة هناك ، وتكونت منهم طبقة تدعى لنفسها امتيازات ، وتفصل نفسها عن الناس حتى تتمكن من التحكم فيهم . واحتكرت هذه الطبقة لنفسها ممارسة الطب والعلاج ، وعلم الفلك وذلك لكى تجمع فى يديها جميع الوسائل التى تمكنها من السيطرة على العقول ، وحتى لا تترك لها أى فرصة لكشف النقاب عن خداعها ، وكسر الأغلال التى تقيدها بها .

« وقد ظل عدد من الشعوب فى هذه الحالة مدة قرون طويلة ، ولم تستطع أن ترتفع بنفسها الى درجات أعلى من التقدم ، بل ان اتصالها بالشعوب الأخرى التى وصلت الى درجة عالية من الحضارة لم يثر فيها حوافز الثورة ، بل اقتصر أثر هذا الاتصال على اكتساب بعض المعارف ، وبعض مستلزمات الصنعة الى جانب عدد كبير من الرذائل ، دون أن ينتزعها من حالة الجمود العقلى .

« وقد يكون من أسباب ذلك تعلق الانسان الطبيعى بالأفكار التى يتلقاها منذ حداثته ، وتمسكه بما درج عليه من عادات بيئته ، وكراهيته الطبيعية لكل نوع من أنواع

التجديد ، هذا الى جانب الكسل الجسمى والعقلى الذى كثيرا ما يتغلب على حب الاستطلاع ، وهو بعد ما زال ضعيفا ٠ واذا قيل ان بعض الشعوب قد استطاعت أن تتغلب على أثر هذه العوامل ، فما ذلك الا لأنها تخلصت أولا من أثر الخرافة المسيطرة على العقول ، والتى كان يغذى شعلتها باستمرار رجال الكهنوت ٠

« وقد امتدح بعض الفلاسفة حالة الركود هذه وسموها حالة الطبيعة ، وجعلوا منها مصـدر الحكمة والفضيلة ، وانتقدهـا فلاسفة آخرون أطلقوا عليهـا حالة الغبـاء والكسل » ٠

« وسوف يكون فى هذا البحث محاولة لحل المشكلة المثارة بين الفريقين ٠ فسنرى لماذا لا يلحق بتقدم العقل دائما تقدم للمجتمعات نحو السعادة ، وكيف أن اختلاط الحقائق بالأكاذيب والأفكار المتسلطة قد أفسد الرابطة التى كان يجب أن توجد بين التقدم واستنارة العقل بأنـواع المعارف ، وكيف أن هذا التقدم لا يعتمد على سعة الاستنارة بقدر ما يعتمد على صفائها ونقائها من الشوائب ٠ وسنرى فى النهاية أن الرذائل التى تعانى منها الشعوب المتحضرة لا يسببها اتساع العلوم والمعارف ، بل تظهر ، على العكس ، عند تدهور هذه العلوم وانحطاطها ٠ فالمعرفة الحقة أبعد من أن تفسد الانسان ،ولكنها على الأقل تهذبه اذا لم تستطع أن تغيره تماما » ٠

العصر اليوناني : وعندما يتحدث كوندرسيه عن العصر اليوناني يهتم بأثر الفلسفة فى تقدم العقل البشرى وبخاصة فلسفة سقراط ، فيقول :

« ان من القواعد الأولية فى كل فلسفة جيدة هو أن تهتم بتكوين لغة خاصة ودقيقة لكل علم ، بحيث تعبر كل كلمة عن فكرة محددة ، ويؤدى ذلك الى الاحاطة بدقائق الأفكار عن طريق التحليل الصارم · « ولكن اليونان ، على العكس ، قد استغلوا بعض عيوب اللغة العامة فى التلاعب بمعانى الكلمات ، وذلك لكى يحيروا العقول فى أنواع من اللبس ، ويضيعونها فى متاهات بالتعبير بكلمة واحدة عن عدد من الأفكار المختلفة · ومع أن هذه الطريقة قد هيأت نوعا من المرونة للعقول الا أنها استنفدت جهدها فى حل معضلات وهمية · وحين اضطرت « فلسفة الكلمات » هذه ، العقل البشرى لأن يقف طويلا أمام كل عقبة لا يقوى على اجتيازها ، فانها بذلك لم تساعد على تقدمه بطريق مباشر ، وانما مهدت فقط لهذا التقدم ·

« وعرفت هذه الفلسفة باسم فلسفة السوفسطائيين · وهى حين تعلقت بمسائل قد يستحيل الوصول الى حلها ، وحين استمالتها عظمة الأشياء دون أن تفكر فيما اذا كان هناك وسيلة لبلوغها ، وحين أرادت أن تؤسس « النظريات » قبل أن تجمع « الوقائع » ، وأن تقدم فلسفة كونية قبل أن تعرف كيف تلاحظ ظواهر هذا الكون ــ حين أرادت

كل ذلك ، فانها لم تفعل سوى أن اقترفت أخطاء جسيمة ، أدته الى وقف سير الفلسفة وهى ما تزال بعد فى خطواتها الأولى ٠

« ولذلك فان سقراط ، حين حارب السوفسطائيين ، وقذف ألاعيبهم الكلامية بوابل من السخرية ، فقد كان يدعو مواطنيه ، فى الوقت نفسه ، لأن يعودوا بالفلسفة الى الأرض بعد أن كادت تتوه فى السماء ٠ ولم يكن معنى ذلك أنه كان يحتقر الفلك أو الهندسة أو ملاحظة ظواهر الطبيعة ، كما أنه لم يكن يفكر قط فى أن يقتصر العقل البشرى على دراسة الأخلاق وحدها ٠ بل تؤكد ، على العكس ، أن الفضل يرجع الى مدرسته بالذات والى تلاميذه فيما يتصل بتقدم العلوم الرياضية والفيزيقية ٠

« ولكن سقراط أراد فقط أن ينبه الناس الى أن يقصروا جهودهم على الأشياء التى وضعتها الطبيعة فى متناول عقولهم ، والى أن يثبتوا موضع أقدامهم قبل أن يخطوا خطوة جديدة ، والى أن يدرسوا العالم المحيط بهم قبل أن يندفعوا ، على غير هدى ، الى الفضاء المجهول ٠

« وكان موت سقراط حدثا هاما فى تاريخ العقل البشرى ٠ اذ أنه أول جريمة ولدت شرارة الحرب بين الفلسفة وبين الخرافة ٠ وقد أعطى حريق المدرسة الفيثاغورية قبلها الانذار لكى تأخذ الفلسفة حذرها من المظالم التى يقترفها مضطهدو الانسانية ٠ وسوف تظل

الخرافة على الأرض ويظل الاضطهاد طالما ظل هناك رجال كهنوت أو ملوك ٠

« اذ أن رجال الكهنوت أحسوا ، فى مرارة ، بأن بعض الناس (وهم الفلاسفة) يبحثون لتحسين عقولهم بالرجوع الى العلل الأولى للأشياء ، ويدركون أثناء هذا البحث سخف أسرار الكهنوت وتفاهة طقوسهم ٠ وخافت فئة الكهنوت أن يلقن الفلاسفة ما توصلوا اليه من علوم الطبيعة وقوانينها الى تلاميذهم ، وأن تنتقل هذه العلوم والمعارف بعد ذلك الى كل من يبحث لتثقيف عقله حتى يعطى لشخصيته وزنا وقيمة ٠ فاتهم رجال الدين الفلاسفة بالالحاد والتجديف فى حق الآلهة حتى يفوتوا عليهم فرصة افهام الشعوب حقيقة موقف رجال الدين من تعويقهم عن الوصـــول الى الحقيقة ٠ ومال بعض الفلاسفة الى تجنب الاضطهاد باتخاذ موقف وسط ، فلم يلقنوا مبادئهم الا الى أخلص الخلصاء من تلاميذهم ، وحجبوا عن الشعب الأفكار التى وجدوا فيها مساسا بمعتقداته الراسخة ٠

العصور الحديثة :

« تقدم العقل البشرى ببطء شـديد خـلال العصر الوسيط بفعل التقدم الطبيعى للحضارة ، وذلك لاستيلاء الخرافة والأساطير عليه من ناحية ، ولسيادة حكم الطغيان الذى شل العقول بسبب الخوف والبؤس من ناحية أخرى ٠

« ولكن غصر النهضة مهد لانتشار العلوم الانسانية ، ذلك الانتشار الذى ما لبث أن بعث العقول من رقادها ، وأحدث تقدما سريعا فى الفكر بما يشبه الثورة • وانتقل هذا التقدم من بلد الى آخر بشكل يضمن لنا أنه لابد أن يعم ، فى وقت قريب ، الجنس البشرى فى مجموعه •

« وهكذا نرى أنه بعد أن هامت البشرية على وجهها فى متاهات الجهل أحقابا طويلة ، وبعد أن تحيرت العقول فى نظريات ناقصة أو غامضة ، توصل المفكرون فى النهاية الى معرفة الحقوق الطبيعية للانسان ، واستخلاصها من هذه الحقيقة الأساسية ، وهى **أن الانســـان كائن له شــعور ويستطيع أن يكون أحكاما ويكتسب أفكارا خلقية •**

« ووجدوا أن الابقاء على هذه الحقوق يجب أن يكون الهدف الوحيد من اجتماع الناس وتكوينهم للمجتمعـات الســـياسية ، وأن التنظيم الاجتماعى يجب أن يكون فى ضمان الاحتفاظ بهذه الحقوق مع العدالة التامة فى أوسع نطاق ممكن •

« وهكذا قضى على المبدأ القديم الذى كان يقسم الناس الى فئتين منفصلتين لا تداخل بينهما : فئة قدر لهـا أن تحكم ، وفئة كتب عليها أن تخضع • الأولى تتسلح بالكذب ، والثانية تدافع عن نفسها ضد الخداع والتضليل • وانتهى

الأمر الى الاعتراف بأن للجميع حقا متساويا فى تنوير عقولهم بما يحقق مصالحهم ، ومعرفة جميع الحقائق ، وبأنه لا حق لأى سلطة من السلطات التى اختاروها لتتولى أمورهم فى أن تحجب عنهم أى حقيقة ٠

« هذه المبادىء الذى اشتهر « لوك » بالدفاع عنها ، وقد وجدت بعد ذلك فى « روسو » خير من ينميها وينشرها فى قوة ، وهو يستحق المجد لأنه وضعها فى عداد الحقائق التى لا يسمح لأحد لا بنسيانها ولا بمخاربتها ٠ وعلى هذا النحو أصبح الانسان يستطيع أن ينمى قواه ، وأن يحصل على ثمرة جهوده ، وان يكفى جميع حاجاته بحرية مطلقة ٠ وغدا الصالح العام لكل مجتمع ، لا فى الحد من ممارسة هذه الحقوق ، بل فى الحيلولة ، على العكس دون مساسها ٠

« على أن ضروب التقدم هذه فى مجالات السياسة والاقتصاد كانت ترتكز الى قاعدة أساسية من الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا باوسع معانى هذه الكلمة ٠

« ويعود الفضل الى « ديكارت » فى أنه أرجع الميتافيزيقا الى نطاق العقل ، وذلك حين شعر بأن مسائلها يجب أن تصدر كلها عن حقائق « واضحة » « وأولية » تطلعنا عليها ملاحظة العمليات التى تدور فى عقلنا ٠

« ثم أخذ « لوك » الخيط الذى وجه به الفلسفة فى نفس الطريق • فبين أن التحليل الدقيق للأفكار ، بارجاعها واحدة بعد أخرى الى أفكار أكثر مباشرة من حيث أصولها ، أو أكثر بساطة من حيث تركيبها ، هو الوسيلة الوحيدة التى تحول بيننا وبين الضـــياع فى خضم من المعلومات الناقصـــة ، أو غير المتسقة أو غير المحـــددة ، وهى تلك المعلومات التى ألقت بها الصدف أمامنا بغير نظام وتلقيناها بغير تفكير • وقد أثبت بفضل هذا التحليل نفسه ، أن جميع الأفكار هى نتاج لعمليات يمارسها ذكاؤنا على أنواع المحسوسات التى تلقيناها • أو بمعنى أدق هى تركيبات لهذه المحسوسات تعيدها علينا الذاكرة فى آن واحـــد ، ولكن بطريقة تمكن الانتباه أو الادراك الحسى أن يقف أو يقتصر على جزء فقط من هذه المحسوسات المركبة •

« كما استطاع لوك أن يؤكد لنا ، أننا حين نلصق كلمة واحدة بكل فكرة بعد أن نحللها ونحددها ، فاننـــا نصل الى تذكر هذه الفكرة دائما هى نفسها ، أى مكونة من عناصرهـــا البسيطة ، ومحصورة فى نفس الحدود • وحينئذ نستطيع استخدامها فى عدد من الأحكام دون أن نخشى الوقوع فى الخطأ • وعلى العكس ، اذا لم تكن الكلمات تعبر عن معنى محدد ، فانها تثير أفكارا مختلفة فى العقل الواحد ، وهذا هو المصدر الخصب لأخطائنا • وأخيرا فان لوك كان صـــاحب الفضـــل فى أنه وضح حدود الذكاء

الانسانى ، أو بمعنى آخر حدد طبيعة الحقائق الذى يستطيع أن يعرفها العقل ، والموضوعات التى يستطيع أن يشتمل عليها ٠

« وأصبح هذا المنهج هو منهج الفلاسفة جميعا ٠ وحين طبقوه على الأخلاق ، والسياسة ، والاقتصاد ، استطاعوا أن يحققوا تقدم هذه العلوم بنفس الخطوات الثابتة التى حققتها العلوم الطبيعية والتى تتلخص فى ألا نقبل الا الحقائق التى قام عليها البرهان ، وأن تفصل هذه الحقائق عما عداها مما لا زالت موضع الشك أو عدم اليقين ، وأن نوطن أنفسنا على أن نجهل ما لا يمكن معرفته ، وما سيستحيل علينا دائما معرفته ٠

« وحينما حققت العلوم الانسانية هذه الخطوة استطاعت أن تحارب بكل قوة وعزم جرائم التعصب والطغيان ، وتعقبت فى نطاق الدين ، والادارة ، والأخلاق ، والقوانين كل ما يحمل طابع الظلم ، والقسوة ، والوحشية ، وأطلقت صيحتها فى سبيل اعلاء هذه المبادىء الثلاثة : العقل ، والتسامح ، والانسانية » ٠

مستقبل البشرية :

يعبر كوندرسيه عن مستقبل البشرية بمثال أعلى ذى ثلاث شعب : عالمية ، واجتماعية ، وأخلاقية ٠ فيقول :

« ان آمالنا عن الحالة المستقبلة للنوع البشرى يمكن تلخيصها فى هذه النقط الثلاثة الرئيسية : القضاء على عدم المساواة بين الدول ، وتقدم فكرة المساواة بين أفراد شعب واحد ، وأخيرا التحسن الخلقى للانسان .

« ومن حسن الطالع أن عدم المساواة بين الدول قد أخذ يختفى فعلا ، وأن الاتصال بين الدول عن طريق التجارة وغيرها قد آتاح لمبادىء الاستقلال والحرية أن تتغلغل الى أبعد المناطق فى آسيا وأفريقيا . وستغمر العالم كله ، فى وقت قريب ، أنوار العلم والمعرفة وبذلك يختفى كل أثر للاستغلال . وحينئذ تحين اللحظة التى نرقبها حين لا تضىء الشمس على الأرض الا لأناس أحرار ، لا يعترفون بسلطان غير سلطان العقل » .

« أما من حيث عدم المساواة بين الأفراد داخل نطاق دولة واحدة ، فهو ذو ثلاثة أوجه : عدم مساواة فى الثروة ، وعدم مساواة فى الحالة الاجتماعية ، وعدم مســـاواة فى التعليم » .

ولا يعتقد كوندرسيه ، أو يرى ممكنا أو مرغوبا فيه أن تختفى كل هذه الظواهر تماما ، ويقول فى ذلك :

« اننا اذا حاولنا أن نقضى على هذه الظواهر قضاء مبرما ، فسنفتح الباب لمصادر أخرى لعدم المساواة أشد خطرا ، وسنوجه الى حقوق الناس ضربات أكثر مباشرة وأبلغ ضررا » ٠

ولكن مع ذلك يعتقد أن عدم المساواة ، فى هذه المجالات الثلاثة ، فى طريقه الى التناقص المستمر ، وأن السير فى هذا الاتجاه لابد أن يزداد سرعة على مر الزمن ٠ فالثروات تتجه طبيعيا نحو التقارب ، ولا شك أن التشريعات الحكيمة فى مجال الصناعة والتجارة ، ووضع نظام ضرائبى عادل ، واصلاح قوانين الأحوال الشخصية ، ومحاربة العادات الضارة ، كل ذلك سيقوى الاتجاه نحو العدالة الاجتماعية ٠

« أما من حيث عدم المساواة فى التعليم ، فالقضاء عليه من أسهل الأمور ٠ فعن طريق الاختيار الصالح لأنواع المعرفة ، وللمناهج الملائمة لتعليمها ، يمكن تثقيف جمهور الشعب فى مجموعه بما يحتاج كل انسان لمعرفته لكى يحسن ادارة بيته وعمله ، وتنمية قدراته ومواهبه ، ولمعرفة حقوقه وواجباته ، وأخيرا لكى لا يشعر بأنه غريب على المشاعر السامية التى تشرق الطبيعية الانسانية ٠ وخلاصة القول أن التعليم يجب أن يكون لخلق انسان حر ، سيد لنفسه ، بحيث يستطيع أن يتجنب أخطار الأفكار المتسلطة والانفعالات الجامحة » ٠

وهكذا يعتقد كوندرسيه اعتقادا راسخا أن انسان المستقبل سيكون أقوى ، وأسعد ، وأكثر ذكاء من انسان اليوم • وأن الفيلسوف الذى يتألم اليوم من الأخطاء والجرائم وأنواع المظالم التى مازالت تلطخ سطح الأرض سوف يجد العزاء فى مشهد لوحة البشرية المستقبلة التى ستكون متحررة من كل هذه القيود التى ترسف فيها اليوم ، متغلبة على كل العوامل التى تعوق التقدم ، وسائرة بخطى ثابتة فى طريق « الحقيقة » و « الفضيلة » ، و « السعادة » •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٩١

ISBN — 977 — 01 — 4398 — 7